

الكذب

سام هاريس

ترجمة حيدر عبدالواحد راشد

سام هاريس

الكذب

ترجمة

حيدر عبدالواحد راشد

من بين المفارقات العديدة للحياة البشرية، لعل هذه المفارقة أكثرها غرابةً وأهميةً: كثيرًا ما نتصرف بطرقٍ من المؤكد أنها تجعلنا تعساء، فالعديد منا يقضون حياتهم وهم يسرون بكل وعي نحو ما يسبب لهم الشعور بالندم، والأسف، والذنب، وخيبة الأمل. وما من شيء يتضح فيه دورنا الإرادي في مأسينا، أو التباين بين حجم المعاناة التي نخلقها وحاجاتنا حينها، أكثر مما يتضح في الأكاذيب التي نرويها لأناس آخرين، فالكذب هو أسهل طريق إلى الفوضى.

خلال دراستي الجامعية في ستانفورد، حضرت حلقة دراسية غيرت حياتي بالكامل، وكانت بعنوان: «المحلل الأخلاقي»، وأدارها بروفيسور موهوب للغاية، هو رونالد أ. هوارد،¹ في هيئة محاوراة سقراطية، وقد انصبّ نقاشنا على سؤال واحد في الأخلاق العملية:

هل الكذب خطأ؟

قد يبدو هذا السؤال لأول وهلة أساسًا ركيكًا لمساق جامعي كامل، فأغلب الناس، على أي حال، يؤمنون فعلاً بأن الكذب عمومًا خطأ، ويعرفون أيضًا أنه يبدو مُبررًا في بعض المواقف، لكن الأمر اللافت حول هذه الحلقة كان مدى صعوبة العثور على أمثلة للأكاذيب الخيرة التي يمكن أن تصمد أمام تمحيص البروفيسور هوارد، فمهما تكن الظروف، وحتى في المواقف التي قد يكذب فيها معظم الأختيار دون تحرج، كان هوارد يرى الحقائق أجدر بأن تُقال معظم الوقت.

لم أعد أذكر رأيي في الكذب قبل أن أحضر «المحلل الأخلاقي»، لكن هذا المساق قام بأقرب ما مررت به في حياتي إلى ترقية للبرامج الدائمة في دماغي، فقد أنهيته مقتنعًا بأن الكذب، حتى في أتفه الأمور، يهدم العلاقات الشخصية والثقة العامة عبثًا.

يصعب أن أصف مدى الراحة التي نلتها بمعرفة ذلك، ولا أعني بهذا أنني كنت معتادًا على الكذب قبل التحاق بمساق هوارد، بل إنني بت أدرك أن أشكالًا لا تحصى من الحرج والمعاناة يمكن تجنبها بسهولة عبر قول الحقيقة فحسب، وصرت أرى من حولي عواقب فشل الآخرين في الالتزام بهذا المبدأ، وكأنها المرة الأولى التي أرى فيها ذلك.

تظل هذه التجربة من أوضح الشواهد في حياتي على قوة التبصر الفلسفي، فقد أثر في مساق «المحلل الأخلاقي» بطرقٍ نادرًا ما تسببها مساقات الجامعة، إذ جعلني شخصًا أفضل.

ما هي الكذبة؟

قد يتخذ الخداع أشكالًا عديدة، ولكن أشكاله ليست كلها أكاذيب. فحتى أكثرنا خُلُقًا يجاهد دومًا للحفاظ على انفصال المظاهر عن الواقع. فعبور وضع مستحضرات التجميل، تحاول المرأة أن تبدو أصغر أو أجمل مما هي عليه، لكن الصراحة لا تتطلب منها إصدار تحذيرات مستمرة مثل: «أرى أنك تنظر إلى وجهي: اعلم رجاءً أنني لا أبدو بهذا الجمال في الصباح الباكر...» وقد يتظاهر الشخص المستعجل بعدم ملاحظة أحد معارفه وهو يمر جواره في الشارع، وقد تتجاهل المضيفة اللبقة أن أحد ضيوفها قد تفوه بشيء يبلغ من الغباء حدًا يبطن من دوران الأرض. وحين تُسأل «كيف حالك؟» يرد معظمنا تلقائيًا بأننا بخير، متفهمين أن هذا السؤال مجرد تحية، وليس دعوة لمناقشة خيباتنا المهنية، أو مشاكلنا الأسرية، أو حالة جهازنا الهضمي. إن الإغفال من هذا النوع قد يعدّ ضررًا من الخداع، لكنّه ليس أكذوبة بالضبط، فقد نتحاشى الحقيقة في لحظات كهذه، لكننا لا نتعمد اختلاق الأباطيل أو إخفاء حقائق مهمة على نحو يضرّ بالآخرين.

كثيرًا ما يكون الحد بين الكذب والخداع غامضًا، فمن الممكن حتى أن نُخدع بواسطة الحقيقة. فيمكنني مثلًا أن أقف على الرصيف أمام البيت الأبيض وأتصل بمقر شركة فيسبوك على هاتفي النقال: «مرحبًا، معك سام هاريس، أتصل من البيت الأبيض، وأود الحديث إلى مارك زوكربيرغ». قد تكون كلماتي حقيقية من منظور ضيق، لكنّ العبارة تتضمّن خُدعةً، فهل أكون كاذبًا في هذه الحالة؟ الأمر وشيك.

الكذب هو تضليل الآخرين عن عمد حين يتوقعون محادثة صادقة.² وهذا يستثني من المهمة السحرة والحواة، ولاعب الورق، وسائر المضللين غير المضرين، لكنّه يسلط الضوء على مشهد نفسي واجتماعي يسهل جدًا التعرف على شكله العام، فالناس يكذبون كي يشكل الآخرون معتقدات غير صحيحة، وكلما ازدادت أهمية المعتقدات - أي كلما اعتمد صلاح حال الشخص أكثر على فهمٍ صحيح للعالم أو على آراء الآخرين - ازدادت أهمية الكذبة.

ولكن مثلما لاحظت الفيلسوفة سيسيليا بوك، فلن نتمكّن من التقدم في هذا الشأن دون التمييز أولًا بين الحق والصدق، لأنّ المرء قد يكون صادقًا فعليًا مع أنه مخطئ.³ والكلام بصدقٍ يعني التمثيل الدقيق لمعتقدات المرء، لكنّ الوضوح لا يوفر أي ضمانة على صحّة معتقدات المرء عن العالم، كما لا يستلزم الصدق أن يقول المرء الحق كلّهُ، لأنّ الإدلاء بكل واقعة في موضوع معين ليس مفيدًا على الأغلب، أو حتى ليس ممكنًا. وبالطبع، فإن لم يكن المرء واثقًا في صحة شيء ما، فإن الإفصاح عن درجة تشككه هو شكل من الصراحة.

بعيدًا عن هذا الإيهام، فإن إيصال ما يعتقد المرء أنه صحيح ومفيد معًا مختلف بالتأكيد عن إخفاء أو تشويه ذلك المعتقد. فالقصد من التواصل بصراحة هو معيار الصدق، ولا يحتاج معظمنا لشهادة في الفلسفة كي يفرقوا بين هذا الموقف وما يلتبس به.

يكذب الناس لعدة أسباب، فقد يكذبون لتجنب الإحراج، أو للمبالغة في إنجازاتهم، أو لإخفاء أخطائهم. وقد يقطعون وعودًا بأمور لا ينوون الوفاء بها، وقد يخفون عيوبًا في منتجاتهم أو خدماتهم، وقد يضللون المنافسين كي يتغلبوا عليهم، كما أنّ كثيرين منا يكذبون على أسرهم وأصدقائهم مراعاةً لمشاعرهم.

وأيا يكن غرضنا من الكذب، فقد تكون الكذبة ضخمة أو خفية، يتطلب بعضها حيلًا معقدة أو مستندات مزورة، وبعضها الآخر يتمثل فقط بالكنايات أو الصمت المحسوب. لكنّ الاعتقاد بشيء مع قصد الإخبار بآخر هو ما يصنع الكذبة.

لا شك أننا جميعًا وقفنا على كلا جانبي الحد الفاصل بين ما يعتقد المرء وما يريد من الآخرين فهمه، وهذه الفجوة عادة ما تختلف حسب كون المرء هو الكاذب أو المكذوب عليه. فكثيرًا ما يتخيّل الكاذب أنه لا يحدث ضررًا ما دامت كذباته لن تُكشَف، ولكنّ المكذوب عليه نادرًا ما يوافقه الرأي، فما أن ننظر لخديعتنا من منظور من نخدعهم، فإننا سنشعر بالخيانة لو انعكست الأدوار.

كانت إحدى صديقاتي، واسمها سينا، ذاهبة ذات مرة لزيارة صديقة أخرى، وأرادت أن تأخذ لها هدية صغيرة، ولكنّها كانت تسافر مع ابنها الصغير لسوء الحظّ، فلم تجد وقتًا للتسوق. وحين كانا يستعدان لمغادرة الفندق، لاحظت سينا أن منتجات الاستحمام التي جُهّزت بها الغرفة كانت لطيفة جدًا، ولذا أخذت بعض الصابون، والشامبوهات، ومراهم الجسم في حقيبة، ثم ربطتها بشريط حصلت عليه من الاستقبال، ومضت في طريقها.

حين قدّمت سينا الهدية، كانت صديقتها مبتهجة، وسألها: «من أين حصلت عليها؟»

وإذ فوجئت سينا بالسؤال، وراودها شعورٌ بعدم لباقة ما فعلته، فقد حاولت تأكيد موقفها بكذبة: «أوه، لقد اشتريناها من محل هدايا الفندق».

ثم جاءت الكلمات اللاحقة من ابنها البريء: «كلا يا أمي، لقد أخذتها من الحمام!»

تخيّل وجهي هاتين المرأتين، متجمدتين مؤقتاً من الإحراج، ثم لائذتين لابتسامات الاعتذار والعفو. قد تبدو هذه من أتفه الأكاذيب—وهي كذلك—لكنها لم تفد في زيادة مستوى الثقة بين الصديقتين. وسواء أضحكتك هذه القصة أم لا، فهي تكشف عن أمر شائن في سيتا: أنها تكذب حين يناسبها ذلك.

إن الفرصة لخداع الآخرين حاضرة دوماً، وكثيراً ما تكون مغرية، وكل موقف خداع يلقي بنا في أشد التضاريس الأخلاقية التي نمر بها انحذاراً. فقلة منا قتلة أو لصوص، لكننا جميعاً قد كذبنا، ولن نستطيع العديد منا أن يخلدوا لفراشهم الليلة دون أن يقولوا عدة أكاذيب على مر اليوم. فما الذي يقوله ذلك عنا، وعن الحياة التي نكوّنها مع بعضنا؟

مرآة الصدق

تشير دراسة واحدة على الأقل إلى أن 10% من التواصل بين الأزواج خادع،⁴ وقد وجدت أخرى أن 38% من اللقاءات بين طلاب الجامعة تتضمن أكاذيب.⁵ فالكذب شائع، ولكن حتى الكاذبون سيقيّمون محادثاتهم الكاذبة بأنها أقل إرضاءً من تلك الصادقة، وذلك ليس مفاجئاً حقاً: فنحن نعرف أن الثقة ثمرة بعمق، وأن الخداع والتشكك وجهان لعملة واحدة. وتشير الأبحاث إلى أن كل أشكال الكذب—حتى الكذب الأبيض الذي يراد به حماية مشاعر الآخرين—ملازم لعلاقات أقل إرضاءً.⁶

ما أن يلتزم المرء بقول الحق، فسيبدأ بملاحظة مدى ندرة أن يلتقي بشخص يشاركه هذا الالتزام، فالأشخاص الصادقون حصن وملجأ: فأنت تعرف أنهم يعنون ما يقولونه، وتعرف أنهم لن يقولوا أمامك شيئاً ووراءك شيئاً آخر، وتعرف أنهم سيخبرونك حين يظنون أنك فشلت، ولهذا السبب فإن مديحهم لا يمكن أن يكون مشوّباً بالإطراء البارد.

الصدق هدية يمكننا منحها للآخرين، وهو أيضاً مصدرٌ للقوة ومحركٌ للبساطة. فمعرفة أننا سنقول الحق، مهما كانت الظروف، لن يضطرنا إلى الاستعداد لكثير من الاحتمالات، ومعرفة أننا قلنا الحق في الماضي لن يتطلب منا أن نتابع أي شيء، بل سنكون ببساطة على سجيتنا في كل لحظة. إننا نتجنّب كثيراً من المشكلات طويلة الأمد بصدقنا مع الآخرين، وإن كنا نحصلُ جرّاء ذلك على بعض الضيق قصير الأمد أحياناً، ومع ذلك، فلا تجدر المبالغة في هذا الضيق، إذ يمكنك أن تكون صريحاً ولطيفاً، لأنّ هدفك من الصدق ليس الإساءة للآخرين، بل أن يمتلك الآخرون المعلومات التي لديك، والتي تريد أنت أن تمتلكها لو كنت محلهم.

إنّ الأمر قد يتطلب تمريناً كي تشعر بالراحة في نمط الحياة هذا، بحيث تلغي المواعيد، أو ترفض الدعوات، أو تفاوض على العقود، أو تنتقد أعمال الآخرين، وتظل مع كل ذلك صريحاً فيما تفكر وتشعر به. وفعلُ ذلك بمثابة حمل مرآة أمام حياة المرء، لأن الالتزام بالصدق يتطلب من المرء الانتباه إلى ماهية الحقيقة في كل لحظة، فأى نوع من الناس أنت؟ وكم أصبحت متحكماً، أو نفعياً، أو تافهاً مؤخراً؟

ربما تكتشف أن بعض صداقاتك ليست صداقات حقًا، فلعلك تكذب عادةً لتجنب إعداد خطط ما، أو لعجزك عن التعبير عن آرائك الحقيقية خوفًا من الوقوع في المشاكل. فمن تُراك تساعد حقًا حين تحيا على هذا النحو؟ وربما تجد أن بعض العلاقات لا يمكن إدامتها بصدق، فنحن جميعًا لدينا بالطبع أواصر يجب أن تدوم بشكل ما، سواء استمتعنا بها أم لا، مع أسرتنا مثلًا، وأصهارنا، وزملائنا، ورؤسائنا، وهلم جرا. لا أنكر هنا أن اللبابة قد تلعب دورًا في تقليص النزاعات، فصون المرء لسانه، أو توجيه المحادثة نحو موضوعات أكثر أمانًا نسبيًا، لا يماثل الكذب (كما لا يتطلب أن ينكر المرء الحقيقة فيما بعد).

بوسع الصدق أن يجعل أي خلل في حياتك يظهر على السطح، فهل أنت في علاقة مؤذية؟ قد يُلزمك رفض الكذب على الآخرين - كأن تُسأل عن سبب هذه الكدمة- بالتصدي لهذا الموقف بسرعة شديدة. هل لديك مشكلة متعلقة بالمخدرات أو الكحول؟

الكذب هو روح الإدمان، وإذا لم نلجأ له، فلن تنهار حياتنا كثيرًا قبل أن يُلاحظ ذلك الآخرون. يمكن لقول الحق أيضًا أن يكشف عن مواطن نرغب بتنميتها في شخصياتنا لكننا لم نفعل، أتذكر كيف عرفت أنه قد وقع عليّ الاختيار لأكون متحدًا باسم الصف في مدرستي الثانوية، لكنني تنصلت من هذا الشرف قائلًا: إنني أشعر بأن شخصًا قضى وقتًا أطول في المدرسة أحقُّ مني بتقديم خطاب التخرج. لقد كنتُ أكذب، فالحقيقة أنني كنت مرتعبًا من فكرة إلقاء خطابٍ عليّ، وكنت سأفعل كل ما في وسعي لتجنّب ذلك، والظاهر أنني لم أكن مستعدًا لمواجهة هذه الحقيقة عن نفسي، كما سمح لي استعدادي للكذب في تلك اللحظة بتجنب فعل ذلك لعدة سنوات أخرى، ولو أنني أخبرت مدير مدرستي بالحقيقة آنذاك، فربما كان سيفتح معي حديثًا يستحق الاستماع.

نوعان من الأكاذيب

عادة ما تقسم التجاوزات الأخلاقية إلى فئتين: الأشياء السيئة التي نفعلها (بالارتكاب) والأشياء الخيرة التي لا نفعلها (بالإغفال). ونحن نميل عامة إلى الحكم على الفئة الأولى بقسوة أكبر، ومنشأ هذا التباين غامض بعض الشيء، لكنّه يرتبط بالتأكيد بالقيمة التي نوليها لطاقة المرء وقصده. ففعل شيء ما يتطلب طاقة، ومعظم الأفعال المهمة أخلاقيًا تتعلق بالقصد الواعي، أما العجز عن فعل شيء ما فقد يحدث عرضيًا بالكامل ويتطلب تصحيحه بذل الطاقة. وهذا الفرق مهم، فهناك اختلاف بين مد يدك في صندوق النقود وسرقة 100 دولار، وإغفالك إعادة 100 دولار كنت قد حصلت عليها بالخطأ. قد نعتبر كلا التصرفين جديرًا باللوم أخلاقيًا، لكن الأول وحده يمثل جهدًا واعيًا للسرقة. ومن نافلة القول إنه لو تكلف المرء أكثر من 100 دولار كي يعيد 100 دولار تلقاها بالخطأ، فقلة منا قد ينتقدونه لو احتفظ بالمال وحسب.⁷

وكذلك الحال مع الكذب. فكذب المرء عن عمره، أو حالته الزوجية، أو مهنته شيء، وعدم تصحيحه للانطباعات الزائفة حين تظهر شيء آخر. فمثلًا، أوصف أحيانًا بأني «طبيب أمراض عصبية»، مع أنني لست كذلك، بل أنا «عالم أعصاب»، فأطباء الأمراض العصبية يحملون شهادات في الطب ويختصون بدراسة اضطرابات الدماغ والجهاز العصبي. أما علماء الأعصاب فيحملون شهادة الدكتوراه ويجرون أبحاثًا، وأنا لست طبيبًا، ولا أملك أي خبرة إكلينيكية، ولا أحلم أبدًا بادعاء أنني طبيب أمراض عصبية. لكنني لا أرى من مسؤوليتي الأخلاقية أن أصحح كل موقف التباس في هذه النقطة. (والبحث في غوغل عن «Sam Harris» و«neurologist» - أي عالم

الأعصاب- يشير إلى أن ذلك سيتطلب قدرًا هائلًا من الطاقة). ولكن لو بدا لي أن اعتقاد شخص ما بكوني طبيب أعصاب سيسبب أذى معينًا، أو يعودُ عليّ بفائدة، فسأكون مذنبًا بكذبة "إغفال"، وسهمي أخلاقيًا حينها أن أوضح المسألة. لكن قلة من الناس قد يساوون عجزني عن فعل ذلك بادعائي باطلاً أنني طبيب أمراض عصبية في الأساس.

في مناقشتي لظاهرة الكذب، سأركّزُ عمومًا على أكاذيب "الارتكاب": أي الكذب في أوضح وأهم أشكاله، لكنّ معظم ما أقوله يصحُّ على أكاذيب الإغفال وعلى الخداع عمومًا، وسأركزُ أيضًا على الأكاذيب «البيضاء» – أي تلك التي نقولها بهدف تجنب الآخرين الضيق – لأنها الأكثر إغراءً لنا، ولأنّها، في الغالب، الأكاذيب الوحيدة التي يقولها الأخيار وهم يخالون أنهم يحسنون صنعًا.

الأكاذيب البيضاء

هل تلقيت ذات يوم هدية مريعة بحق؟- كان يفترض بالوقت الذي قضيته في تمزيق ورق التغليف أن يهيبك لذلك – لكنك فوجئت بها:

«واو...»

«هل أعجبتك؟»

«إنها رائعة، من أين حصلت عليها؟»

«بانكوك، هل أعجبتك؟»

«متى كنت في بانكوك؟»

«عيد الميلاد. هل أعجبتك؟»

«نعم... بالتأكيد، أين ذهبت أيضًا في تايلاند؟»

ها أنا الآن أنصب عرقًا باردًا، فأنا لست مستعدًا لهذا، وفي العموم، فقد تعلمت أن أكون صريحًا حتى حين أبأغت. لا أقول الحقيقة دومًا على النحو الذي أرغب فيه، لكنّ إحدى حسنات قول الحقيقة هو أنها تظل منفتحة للتفصيل، فإن لم يكن ما تقوله من وحي اللحظة صائبًا تمامًا، فيمكنك أن تعقب عليه وتعديله. وقد تعلمت أن الأفضل أن أكون غير لبق، أو فظًا، من أن أكون مدلسًا.

ماذا كان بوسعي أن أقول في الموقف السابق؟

«واو... هل يرتديه المرء أم يعلقه على الحائط؟»

«ترتيبه. فهو دافئ حقًا، هل أعجبتك؟»

«هل تعلمين؟ سرّني حقا أنك فكرت فيّ، ولكن ما من سبيل لأنّ يناسبني هذا، فنمط أزيائي ما بين الممل والممل جدًّا».

وهذا أقرب كثيرًا إلى شكل الردود التي أرتاح إليها، لعل بعض الكنايات تتسلل إليه، لكنّ التواصل الأساسي صادق، فقد أعلمت صديقتي بوضوح بأن لا تتوقع أن تراني أرتدي هديتها في لقائنا القادم، كما منحتها أيضًا فرصة كي تحتفظ بها لنفسها، أو أن تمنحها لصديق آخر قد تعجبه الهدية فعلاً.

قد يخشى بعض القراء الآن من أنني أوصي بالعودة إلى مرحلة التمهق الاجتماعي الخاصة بالطفولة المبكرة، فالأطفال، على أي حال، لا يتعلمون كيف يقولون أكاذيب بيضاء حتى عمر الرابعة، حتى

يتوصلوا لفهم وادراك حالات وعي الآخرين من حولهم.⁸ ولكن ما من سبب يدفعنا للاعتقاد بأن الضوابط الاجتماعية، التي يصادف أنها تستقر في الرئيسيات أمثالنا عند حوالي عمر الحادية عشرة، ستقود إلى العلاقات البشرية المثلى، فهناك في الواقع أسباب عديدة للاعتقاد بأن الكذب هو السلوك الذي يجدر بنا تجاوزه كي نبنى عالماً أفضل.

تُرى ما العيب حقاً في الأكاذيب «البيضاء»؟ أولاً، ستظل أكاذيب، وبقولنا إياها، سنَجْرُ علينا كل المشاكل المترتبة على عدم صراحتنا في تعاملنا مع الآخرين، فالإخلاص، والأصالة، والنزاهة، والتفاهم – هذه المصادر وغيرها للثراء الأخلاقي- ستدمر ما أن نُقدم عمداً على تمويه معتقداتنا، سواء افتضحت أكاذيبنا أم لم تفتضح.

ورغم تخيلنا أننا نقول بعض الأكاذيب بدافع التعاطف مع الآخرين، فنادرًا ما يصعب تشخيص الضرر الذي نحدثه جراء ذلك. فنحن، عن طريق الكذب، نمنع أصدقاءنا من الوصول إلى الحقيقة⁹، وجهلهم الناجم عن ذلك كثيرًا ما يضُرُّ بهم بأشكال لم نتوقعها. فقد يعوّل أصدقاءنا على أباطينا، أو يفشلون في حل المشاكل التي ما كانت لتحل إلا بفضل معلومات جيدة. بل إن الكذب كثيرًا ما يمثل انتهاكًا لحرية من يهمننا أمرهم.

وهذا مثالٌ بسيط:

«هل أبدو بدينة في هذا الفستان؟»

يؤكد معظم الناس أن الجواب الصحيح لهذا السؤال هو «لا» دومًا. بل يعتقد العديد في الواقع أنه ليس سؤالاً أصلاً، فالمرأة تعني ببساطة «قل لي أني أبدو جميلة». وإن كانت زوجتك أو خليلتك، فلعلها تقصد حتى «قل لي إنك تحبني». وإن كنت تعتقد بصدق أن هذا هو الموقف الذي أنت فيه – أن النص مضلل وما بين السطور هو الرسالة بأكملها – فليكن كذلك. فالرد بصدق على ما بين السطور لن يكون كذبًا.

لكن هذه حالة حدية لسبب وجيه: إنها تجسّد لنا الجانب المغربي في الأكاذيب البيضاء، فلم لا نطمئن شخصًا ما بكذبة صغيرة ونتركه يواجه العالم بثقة أكبر؟ ولكن ما لم يلتزم المرء بقول الحقيقة حتى في مواقف كهذه، فسوف يرى أن الحدود تتجه للداخل، وتبدأ الاستثناءات من مبدأ الصدق بالتضاعف، ولن يطول الوقت حتى تجد نفسك تتصرف كما يفعل معظم الناس دون جهد يذكر: حيث تراوغ في قول الحقيقة، أو حتى تكذب علنًا، دون أن تفكر في ذلك والتمن غالٍ جدًا.

سألني أحد أصدقائي مؤخرًا إن كنت أظن أن وزنه زائد، ولعله كان في الواقع يسألني للتأكد فحسب، فقد كان الوقت بداية الصيف، وكنا نجلس مع زوجتينا بجانب المسيح. لكنني أرتاح أكثر للتكامل على الكلمات التي يقولها الشخص فعلاً، بدلًا من قدراتي التخاطبية. ولذا فقد أجبت سؤاله بنحو مباشر: «لن يصفك أحد بأنك بدين، لكني لو كنت مكانك لفقدت خمسة وعشرين رطلًا». كان ذلك قبل شهرين، وهو الآن أخف وزنًا بخمسة عشر رطلًا.¹⁰ لم يكن أيُّ منا يعرف أنه كان مستعدًا للمضي في حمية حتى رفضت فرصة أن أكذب حول الهيئة التي يبدو بها في ملابس السباحة.

لنعد إلى صديقتنا في الفستان: ما الحقيقة هنا؟ لعلها تبدو بدينة فعلاً في الفستان، لكن العيب في الفستان، وإخبارها بالحقيقة سيسمح لها باختيار زي أكثر ملاءمةً لقوامها.

ولكن لتتخيل أن الحقيقة أصعب قولاً: فصدقتك تبدو بدينة في هذا الفستان، وفي كلّ فستان، لأنها بدينة بحق. لنقل أيضاً أنها عذباء، وفي الخامسة والثلاثين، وأنت تعلم أنّ أعظم رغباتها هي الزواج وإنشاء عائلة، كما تعتقد أيضاً أن العديد من الرجال سيرفضون مواعدها وهي في وزنها الحالي. وإلى جانب الزواج، فأنت واثق من أنها ستكون أكثر سعادةً وصحةً، وتشعر على نحو أفضل تجاه نفسها، لو أنّها أصبحت رشيقة.

وما الكذبة البيضاء إلا إنكارٌ لهذه الحقائق، فهي تعني رفض تقديم النصيحة المخلصة عند الحاجة لها، وحتى في موضوع حسّاس كهذا، فإن الكذب يمثّل خذلاً جليلاً للصدقة، فعبّر طمأنة صديقتك بشأن مظهرها، فإنك لا تساعد في فعل ما ترى أنه يجب عليها فعله، كي تحصل على ما تريده من الحياة.¹¹

في العديد من ظروف الحياة، قد يكون التشجيع الزائف مكلّمًا جدًا لشخص آخر، تخيّل أن لديك صديقًا قضى أعوامًا يناضل دون نجاح كي يبني مسيرته في التمثيل - بالطبع فهناك كثيرٌ من الممثلين البارعين يناضلون على نفس النحو - لكنّ السبب في حالة صديقك يبدو واضحًا للغاية: إنّه ممثل رديء. وفي الواقع، أنت تعرف أن أصدقاء الآخرين - وحتى والديه - يوافقونك الرأي، لكنهم لا يجروؤن على إخباره بذلك، ماذا تقول له إذن حين يشكو مجددًا من مسيرته المعطّلة؟ هل ستشجعه على «المضي فيها»؟ إن التشجيع الزائف ضربٌ من السرقة، فهو يسلب الوقت، والطاقة، والتحفيز من شخص كان سيستغلها لتحقيق أي هدف آخر.

لكن هذا لا يعني أننا محقون دومًا في أحكامنا على الآخرين، فالصدق يتطلب منا أن نعبّر عن أي شك قد يخامرنا في وجهة آرائنا، ولكن لو كنا مقتنعين بأن صديقًا ما قد سلك منعطفًا خاطئًا في حياته، فليس من أمارات الصداقة أن نكتفي بالابتسام والتلويح له تأييدًا.

إن كانت الحقيقة نفسها أكثر إيلاّمًا من أن تقال، وكثيرًا ما لا تكون الحقائق الأساسية كذلك، فإنّ بالإمكان إيصالها بطريقة تعمق من الصداقة، وفي الأمثلة أعلاه نرى أن الحقيقة الأبسط هي أنك تحب أصدقاءك وتريد لهم السعادة، وأن بإمكان هؤلاء الأصدقاء أن يقوموا بتغييرات في حياتهم قد تقودهم إلى مزيد من إشباع رغباتهم، وعبر الكذب عليهم، فإنك لا ترفض مساعدتهم فحسب، بل تخفي عنهم معلومات مفيدة، وتدفع بهم نحو الإحباط مستقبلاً. لكن إغواء الكذب في هذه الظروف قد يكون غامراً.

حين نزعم أننا نكذب على الآخرين لمصلحتهم، نكون قد قررنا أننا نحن الحكّام الأفضل على ما يجب أن يفهموه عن حياتهم الخاصة، وعن مظهرهم، أو سمعتهم، أو آفاقهم في العالم. وذلك موقف من النادر أن نتخذه تجاه بشر آخرين، ويتطلب منا سببًا وجيماً. فما لم يكن أحدهم يميل إلى الانتحار أو يقف على أي نحو آخر على شفا الهاوية، فإن تحديد ما يجب أن يعرفه عن نفسه يمثل خلاصة التعنت. أي موقف يا ترى سيكون أكثر استهانة بمن يهمننا أمرهم؟

وأنا أستعد لتأليف هذا الكتاب، طلبت من الأصدقاء والقراء أمثلة عن أكاذيب أثرت عليهم، وسأورد بعض قصصهم فيما يلي. (لقد غيرت جميع الأسماء، لحماية الأبرياء والمذنبين معاً) تحدث العديد منهم عن أفراد أسرة كذبوا على بعضهم بخصوص التشخيصات الطبية، إليك مثالاً:

شُخِّصت أمي بداء التصلب المتعدد (MS) وهي في أواخر الثلاثينات، وقد ظن الدكتور أنه من الأفضل أن يكذب ويقول لها إنها لا تعاني من التصلب المتعدد، لكنه أخبر والدي بالحقيقة، وقرر والدي أن يحتفظ بها لنفسه لأنه لم يرد إزعاج أمي أو أي من أطفالها الثلاث.

في الوقت ذاته، ذهبت أمي إلى المكتبة، وقرأت عن أعراضها، وشُخِّصت نفسها بداء التصلب المتعدد، وقررت بدورها ألا تخبر والدي أو أولادها لأنها لم ترد إزعاج أيٍّ منهم.

وبعد عام كامل، حين ذهبتُ إلى الطبيب لإجراء فحصها السنوي، أخبرها بأنها تعاني من التصلب المتعدد، فاعترفت بأنها كانت تعلم لكنها لم تخبر أحدًا، واعترف أبي بأنه كان يعلم لكنه لم يخبر أحدًا، وهكذا فقد أمضيا عامًا كاملًا يكتمان سرًّا دون أن يدعم أحدهما الآخر.

أما أخي فقد عرف بالصدفة بعد عام آخر، حين خضعت أمي لجراحة سرطان الثدي، فقد دخل الجراح إلى الغرفة وقال ما خلاصته: «لن يؤثر ذلك على التصلب المتعدد». فقال أخي «أي تصلب متعدد تعني؟» وأظن أنه مضى عامان آخران قبل أن يخبرني أحدهم أو يخبر أختي عن إصابة أمي بالتصلب المتعدد... وبدلاً من الشعور بالامتنان والحماية، شعرتُ بالحزن لأننا لم نتكاتف كعائلة كي نواجه مرضها ويدعم بعضنا بعضًا.

لم تخبر أمي أمها أبدًا عن التصلب المتعدد، مما يعني أن أيًّا منا لم يستطع إخبار العائلة والأصدقاء، خشية أن تعرف أمها عن ذلك، لأنها لم ترغب أن تشعر أمها بالأسى، وأظن أنها حرمت نفسها بذلك من فرصة تكوين علاقة أعمق مع أمها.

كانت هذه الأمثلة على الخداع الطبي شائعة جدًا ذات يوم، وقد عايشنت في الواقع مثالًا عليها ضمن أسرتي: فقد توفيت جدتي لأمي بالسرطان حين كانت أمي في السادسة عشرة، لقد كانت تعاني من سرطان الجلد المتفشي لمدة تقارب العام، لكن طبيبها قال لها إنها مصابة بالتهاب المفاصل، غير أن زوجها، أي جدي، كان يعرف التشخيص الصحيح وقرر أن يستمر في الخديعة أيضًا.

بعد أن تدهورت حالة جدتي ونقلت أخيرًا إلى المستشفى، أسرتُ إلى ممرضة بأنها تعرف أنها ستموت، لكنها تخيلت أنها كانت تُبقي ذلك سرًّا عن بقية العائلة، بما فيهم زوجها. فقد ظلت أمي وأخوها الأصغر جاهلين تمامًا بالأمر، وفي تصورهم، حُجزت والدتهم في المستشفى بسبب «التهاب المفاصل» ثم لم تعد.

فكّر في كل الفرص لتعميق الحب، والتعاطف، والمغفرة، والتفهم التي تضيّعها أكاذيبُ بيضاء من هذا النوع. حين نتظاهر بعدم معرفتنا بالحقيقة، علينا أيضًا أن نتظاهر بأنها لا تحقّزنا، وذلك قد يجبرنا على القيام بخيارات ما كنا لنختارها. فهل حقًا كان جدي لا يملك أي شيء ليقوله لزوجته في ضوء حقيقة أنها ستموت عن قريب؟ ألم تملك هي حقًا أي شيء تقوله لولديها كي يستعدا لحياتهما من دونها؟ إن هذا النوع من الصمت جرح، فلا نتشارك الحكمة، ولا نقطع الوعود، ولا نقدم الاعتذارات. وسرعان ما تتلاشى الفرصة لقول شيء مفيد لأحبابنا، دون رجعة.

من ذا سيختار أن يغادر العالم في عزلة رهيبه كهذه؟ لعل هناك من يفعلون. ولكن لماذا يجدر بأي أحد أن يختار ذلك لشخص آخر؟

الثقة

استرقت جيسيكا السمع مؤخراً على صديقتها لوسي وهي تكذب كذبة بيضاء: فقد كان لديها واجب اجتماعي أرادت التملص منه، وسمعتها جيسيكا وهي تترك رسالة بريد صوتي لصديقة أخرى، تشرح فيه لماذا يجب أن تحدد موعداً آخر للقاءهما. وكان عذر لوسي مُختلِّقاً بالكامل –تضمّن شيئاً ما عن مرض طفلها– لكنّها كذبت بكل سهولة، وعلى نحو مقنع لدرجة دفعت جيسيكا للتساؤل إن كانت لوسي قد خدعتها فيما مضى. أما الآن، فكلما ألغت لوسي موعداً، شكّت جيسيكا في أنّ لوسي لا تقول الحقيقة.

هذه التآكلات الضئيلة في الثقة مضرّة بالأخص لأنها لا تُعالج معظم الوقت، فلوسي لا تملك سبباً للظن بأن جيسيكا ناقمةٌ عليها، لأنها حقاً ليست كذلك، لكنّها ببساطة لم تعد تثق فيها كما كانت، بعد أن سمعتها تكذب دون حرج على صديقة أخرى. وبالطبع فلو كانت المشكلة (أو العلاقة) أعمق، لعل جيسيكا كانت ستقول شيئاً، ولكنها كالعادة تشعر بعدم الحاجة لتأنيب لوسي على أخلاقها. والحصيلة هي أن رسالة صوتية واحدة، تُركت لطرف ثالث، قوّضت قليلاً من هذه الصداقة.

لقد رأينا من قبل أن وجود الأطفال حولنا خطر لو رغب المرء في الكذب دون قيود، وإليك مثلاً آخر لو بقي لديك أي شك: علم صديقي دانيال مؤخراً من زوجته أن زوجين آخرين سيأتيان ليقبلا في منزلها لمدة أسبوع، ومانع دانيال ذلك، فهذا الأسبوع في نظره سيكون دهرًا، خاصة أنه لم يكن على وفاق مع الزوج على الإطلاق. وقد أثار ذلك جدلاً وجزياً بين دانيال وزوجته بحضور طفلهما الصغيرة.

استسلم دانيال في النهاية، وسرعان ما حضر الزوجان إلى عتبة دارهما مع قدر هائل من الحقائق. وما أن دخل الزوج البغيض إلى المنزل، حتى عبّر عن امتنانه للسماح لهما بالبقاء في غرفة ضيوف دانيال.

قال دانيال وابنته بجانبه: «لا تقلق، تسعدني رؤيتك، نحب وجودك عندنا».

فقالت ابنته: «ولكن أبي، ألم تقل إنك لا تريد أن يبقى معنا؟»

فرد الأب: «لم أفعل».

«بل فعلت، ألا تذكر؟»

«لا، لا... كان ذلك موقفاً آخر». أحسّ دانيال أنه لم يعد بوسعها النظر في عيون ضيوفه، ولم يجد فكرة أفضل من الأخذ بيد ابنته لإبعادها، قائلاً: «أين دفتر تلويينك؟»

ثمة كوميديا هنا، للآخرين فقط. ولكن ما الانطباع الذي يكونه أطفالنا عنا في مواقف كهذه؟ أهذا حقاً هو المثال الذي نريد تقديمه لهم؟ إن إخفاقات النزاهة الشخصية ما أن تنكشف، فإنها نادراً ما تُغتفر. يمكننا بالطبع أن نعتذر، أو أن نعتزم أن نكون أصدق في المستقبل، لكننا لا نستطيع محو الانطباع السيئ الذي تركناه في عقول الآخرين.

أكرر أنني لا أنكر أن اللباقة تلعب دورًا في لقاءات من هذا النوع، فلو قال دانيال: «لهذا وجدت غرفة الضيوف... كيف كانت رحلتك؟» لاستطاع حل الموقف دون أن يشوّه مشاعره بشكل فادح أمام ابنته، يمكن لمحدثات كهذه أن تكون محرجة مع ذلك، ولكن يمكن تجنب الإحراج والاضطراب الاجتماعي عمومًا عبر اتباع مبدأ واحد: لا تكذب.

المديح الباهت

كانت هناك أوقات في حياتي كرّستُ فيها جهدي لمشروع كان فاشلاً ببساطة، واستثمرت فيه شهورًا—وفي إحدى الحالات أعوامًا—ربما كان التقييم الصادق فيها سيجنّبني قدرًا هائلًا من الجهد المهدر. وفي أوقات أخرى، تلقّيت النقد الصريح تمامًا حين احتجت إليه، ما مكّني من تغيير المسار بسرعة، عالمًا بأنني قد تجنّبت كثيرًا من الجهد الفائض والمرهق. ولا حاجة للمبالغة في وصف الفرق العظيم بين هذين المصيرين، نعم، قد يكون من المزعج أن يقال لنا إننا قد ضيعنا وقتًا، أو إننا لا نبلي حسنًا بقدر ما نتوقع، ولكن إن كان النقد سليمًا، فهو بالضبط أكثر ما نحتاج إلى سماعه كي نشق طريقنا في العالم.

لكننا كثيرًا ما يغرينا أن نشجّع الآخرين بمديح غير صادق، وبهذا فإننا نعاملهم كالأطفال، في حين نفشل في جعلهم مستعدين لمواجهة من سيحكمون عليهم كبالغين. لا أعني هنا أن علينا أن نتصيّد الفرص كي ننتقد الآخرين، ولكن حين يُطلب منا رأي صريح، فلن نسدي لأصدقائنا أي معروف حين نتظاهر بعدم ملاحظة العيوب في أعمالهم، خاصة حين يتحتّم على غير أصدقائهم أن يلاحظوا نفس تلك العيوب. فتجنّب الآخرين خيبة الأمل والإحراج هو شكل عظيم من الشفقة. وإن كان لدينا تاريخ طويل من الصدق، فإن مديحنا وتشجيعنا سيكون لهما قيمة في الواقع.

لدي صديق يعمل كاتبًا ناجحًا جدًّا، وفي بداية مسيرته، كتب قصة وجدتُ أنها مريعة، وأخبرته بذلك. لم يكن ذلك سهلًا عليّ، لأنه قضى سحابة عام وهو يعمل عليها، لكنها كانت الحقيقة (كما رأيتم). أما الآن، فحين أخبره بأنني أحببت شيئًا مما كتبه، فهو يعرف أنني أحبه حقًا، وهو يعرف أيضًا أنني أحترم موهبته بما يكفي لأن أخبره حين لا أحب ما كتبه، وأنا واثق بأن هناك

الأسرار

إن الالتزام بالصدق لا يعني بالضرورة أن نفصح عن معلومات شخصية نفضّل أن نبقيها خاصة، فلو سألك أحدهم عن مقدار ما تودعه في حسابك المصرفي، فلست ملزمًا أخلاقيًا بأن تجيبه، ولعل الحقيقة أن تجيبه: «أفضّل ألا أقول».

وهكذا فما من صراع، من حيث المبدأ، بين الصدق وكتمان الأسرار. ولكنّ الجدير بالذكر أن العديد من الأسرار—خاصة التي يُطلب منا كتمانها عن الآخرين—قد تجعلنا في موقف نضطر فيه إلى الاختيار بين الكذب وكشف معلومات خاصة، فالموافقة على حفظ السر تعني تحمل عبء ما، إذ على الأقل، فإنّ على المرء أن يتذكر ما يجب ألا يتحدث عنه، وقد يكون ذلك صعبًا وربما يقود إلى محاولات مرتبكة للخداع. وما لم يتطلب عملك أن تحتفظ بالأسرار—كما يفعل الأطباء، والمحامون، والأطباء النفسيون، وسائر الاختصاصيين ذوي الثقة باستمرار—فهو أمر يستحق التجنب.

كانت قد مضت على صداقة ستيفاني وجينا أكثر من عشرة أعوام حين بدأت ستيفاني تسمع إشاعات عن أنّ ديريك، زوج جينا، على علاقة بأخرى. ورغم أن ستيفاني لم ترّ نفسها قريبة بما يكفي من جينا كي تثير الموضوع مباشرة، فإن قليلاً من البحث كشف أن معظم الناس في دائرة معارفها يعرفون بخيانة ديريك، إلا جينا نفسها كما يبدو.

لم يكن ديريك متكتمًا، فقد كان يعمل في صناعة الأفلام، وكانت عشيقته ممثلة صاعدة. وذات مرة، حين سافر مع جينا والأولاد في إجازة، فإنه حجز لتلك المرأة غرفة في نفس الفندق. ثم عيّنها لاحقًا في منصب مساعدة الإنتاج، وهي الآن ترافقه في رحلات العمل، بل وحضرت فعاليات كانت جينا حاضرة فيها.

أرادت ستيفاني، بوصفها إحدى صديقات جينا، أن تفعل كل ما بوسعها لمساعدتها، ولكن ما الذي يمكن اعتباره صحيحاً في مثل هذا الموقف؟ لقد كانت صديقة من الدرجة الثانية، و قد جعلها الشخص الذي أخبرها بعلاقة ديريك تقسم على كتمان السرّ، كما أنّها كانت تعرف نساءً كن أقرب إلى جينا منها، فلماذا لم تقل أيّ منهن شيئاً؟

التقت ستيفاني بجينا عدة مرات أخرى - حيث كانتا تتناولان الغداء معاً بانتظام طوال أعوام - لكنها وجدت أنها لم تعد تحتل رفقتها، حيث كانت جينا تتحدث عن إكمال منزلها الجديد، أو حول خططها لرحلة قادمة، وكانت ستيفاني تشعر بأنّ صمتها يسهم في انهيار صديقتها النهائي، وهكذا فقد استحالت المحادثة العادية بينهما إلى محنة من التظاهر بأن شيئاً لم يكن.

وسواء أكانت جينا تعلم عن سلوك زوجها وتبقيه سرّاً، أم كانت تخدع نفسها، أم مجرد ضحية لخبثه وتعاون الآخرين معه، فإن تظاهر ستيفاني لم يعد يختلف عن الكذب، وسرعان ما تباعدت الصديقتان ولم تتحدثا لأعوام، وكأنّ الأمر حصل بفعل السحر.

كانت ستيفاني تعرف عدة أشخاص على علم مباشر بخيانات ديريك، كانوا قد قطعوا علاقتهم معه بصمت، تاركين جينا في ظلام الجهل (أو راضين لها بأن تبقى هناك). وقد راودني شعورٌ غريب بأن ترى شخصاً محاطاً بالأصدقاء، يعيش تحت جبل من الأكاذيب والنميمة، دون أن يجد صديقاً في العالم بأسره يخبره بالحقيقة. وهكذا كُتب النصر النهائي لديريك، فالذين لم يعودوا قادرين على استمرار علاقتهم به بسبب معاملته غير المقبولة لزوجته، أعانوه رغم ذلك على استمرار أكاذيبه، وتخلوا عن زوجته بفعلهم ذلك.

الكذب على حافة الخطر

كان عمانوئيل كانط يعتقد أن الكذب لا أخلاقي في كل الحالات، حتى حين تحاول أن تمنع عن طريقه قتل شخص بريء، وكما هو الحال مع العديد من آرائه الفلسفية، فإن موقف كانط تجاه الكذب لم يبرهن عليه بقدر ما افترضه، وكأنه حكم ديني. ومع أن عبارة «لا تكذب أبداً» تمتاز بوضوحها دون شك، فإن قاعدة كهذه في الواقع قد تنتج سلوكاً لا يقبل به إلا شخص مختل نفسياً. إنّ تحريم الكذب على نحو شامل غير منسجم أخلاقياً إلا عند شخص مسالم على نحو مثالي، فلو كنت ترى أنه يجوز في بعض الحالات أن تجرح أو تقتل شخصاً دفاعاً عن النفس، أو عن شخص آخر، فلا يعقل أن تستبعد الكذب في نفس الظروف.¹²

لا أملك أي سبب لأخذ كانط على محمل الجد في هذه النقطة، لكن ذلك لا يعني أن تبرير الكذب أمر سهل. فالكذب، حتى كوسيلة لدرء العنف، كثيرًا ما يغلق الباب في وجه أفعال التواصل الصادق التي قد تكون أكثر كفاءة، أو يمكن أن تُحدث تطورات أخلاقية مهمة.

في تلك الظروف التي نقضي فيها بأن من الضروري بوضوح أن نكذب، نكون قد حكمنا إجمالاً بأن الشخص الذي سنخذه يمثل خطرًا علينا، ولا يمكن التفاهم معه عبر الاستعانة بالحقيقة. وبعبارة أخرى، فقد حكمنا على فرصة تأسيس علاقة صادقة معه بأنها معدومة. وفي حياة معظمنا، نادرًا ما تظهر ظروف كهذه، هذا إذا ظهرت من الأساس، وحتى حينما تظهر، فكثيرًا ما يخطر ببالنا أن الكذب هو المهرب الأسهل (والأقل من مثالي أخلاقيًا).

لنأخذ حالة متطرفة كي نجعلها نموذجًا لأمثالها في هذا الصنف: ثمة قاتل معروف يبحث عن ولد تؤويه أنت في منزلك، والقاتل يقف ببابك ويرغب في معرفة إن كنت قد شاهدت ضحيته المقصودة. إن إغواء الكذب مفهوم تمامًا، لكن الكذب وحده قد يؤدي إلى نتائج أخرى لا تريدها، فلو قلت إنك رأيت الولد وهو يتسلق سورك ويمضي خلال العي، فقد يغادر القاتل، لكنه قد يقتل طفل شخص آخر. وحتى في هذه الحالة البائسة، فلعل الكذب سيكون أفضل أمالك لحماية أرواح الأبرياء، لكن ذلك لا يعني أن شخصًا أشجع أو أقدر منك ما كان ليصل لنتيجة أفضل مستعينًا بالحقيقة.

لا يمكن اعتبار الصدق في مثل هذه الظروف إزعاجًا، ولعل الحقيقة في هذه الحالة ستكون: «لن أخبرك حتى لو كنت أعرف، ولو خطوت خطوة أخرى، فسأضع رصاصة في رأسك». ولو بدا أن الكذب هو الخيار الوحيد، نظرًا لخوفك أو ضعفك الجسدي، فذلك قد ينقل عبء مواجهة الشر إلى الآخرين، صحيح أن جيرانك قد يكونون أفضل استعدادًا منك لتحمل هذا العبء، لكن أحدهم لا بد أن يتحملة في النهاية. وإن لم كن ثمة أحد، فعلى الشرطة أن تخبر المجرمين بالحقيقة: لن يتم التسامح مع سلوكهم.

لكن الأكثر شيوعًا من ذلك بكثير هو أن نجد أنفسنا في مواقف قد تقودنا فيها الصراحة، رغم إغراء الكذب، إلى تكوين صلات بأناس ربما كانوا سيصبحون أعداء لنا. وفي هذا الصدد، أتذكر لقاءً جمعتني بضابط جمارك أميركي بعد عودتي من أول رحلة لي إلى آسيا.

كان ذلك عام 1987، لكن الوضع بدا وكأنني خارج من صيف الحب* فقد كنت في العشرين من العمر، وشعري يصل إلى كتفي، مرتديًا ملابس شبيهة بسائق ريكشا (هي عربة بعجلتين يجرها إنسان تستخدم للنقل في بعض مناطق آسيا) هندي. وفي نظر القائمين على تطبيق قوانين المخدرات في بلادنا، فإن أخذ الحيطه والحذر كان يفرض إخضاع حقايب لتمحيص شديد. ولحسن الحظ، لم يكن لدي ما أخفيه.

«من أين أتيت؟» سألتني الضابط، لامحًا حقيبة ظهري بتشكك.

أجبت: «الهند، نيبال، تايلاند...»

«هل تعاطيت أي مخدرات حين كنت هناك؟»

* صيف الحب: ظاهرة شبابية حصلت في صيف عام 1967، حيث تمركز حوالي مائة ألف شاب وشابة في سان فرانسيسكو وهم يرتدون ملابس مميزة للهيبيين، يتعاطون المخدرات، ويحتفلون بالموسيقى المصاحبة لذلك. كانت هناك تجمعات معاصرة لذلك في مدن غربية أخرى، لكن تجمع سان فرانسيسكو كان الأشهر. - المترجم

الواقع أنني فعلت، وكان إغراء الكذب واضحًا، فلماذا أتحدث إلى ضابط جمارك حول تعاطي مؤخرًا للمخدرات؟ لكنني لم أملك سببًا واقعيًا لإخفاء الحقيقة، سوى المخاطرة بأن يقود ذلك إلى تفتيش حقائبي (وربما تفتيشي شخصيًا) بنحو أكثر تفصيلًا مما شرع فيه الضابط أصلًا.

فقلت: «نعم».

كفّ الضابط عن التفتيش في حقائبي ونظر إليّ. «أيًا منها تعاطيت؟»

«دخنت الحشيش بضع مرات... وجربت الأفيون في الهند».

«الأفيون؟»

«أجل».

«الأفيون أم الهيروين؟»

«لقد كان الأفيون».

«لا يسمع المرء كثيرًا بالأفيون هذه الأيام».

«أعلم ذلك، فقد كانت أول مرة أجره فيها».

«هل تحمل أي مخدرات معك الآن؟»

«لا».

رمقني الضابط بحذر لبرهة ثم عاد لتفتيش حقيبتي.

وبالنظر لطبيعة محادثتنا، تقبّلت فكرة أنني سأظل هناك لوقت طويل جدًّا، ولذا وقفت صابريًا كالشجرة. وكان ذلك في صالحني، لأنّ الضابط كان الآن يفتش متعلقاتي وكأن أي غرض منها – كفرشاة أسنان، أو كتاب، أو مصباح يدوي، أو قطعة من حبل نيلون – قد يكشف عن أعماق أسرار الكون.

«كيف كان الأفيون؟» سألتني بعد وهلة.

أخبرته بذلك، وفي الحقيقة، فقد أخبرت هذا المسؤول بمعظم ما أعرفه عن استخدام المواد المغيرة للوعي في العشر دقائق اللاحقة.

انتهى الضابط أخيرًا من بحثه وأغلق حقائبي، وكان هناك أمر واضح تمامًا في نهاية لقائنا، وهو أنّ كلانا أحسنّ بشعور جيّد حيال ما جرى.

ربما كان شخص آخر أكثر كيشوتية -غير واقعي- سيشعر بأنه عارٍ. لست على يقين بأني قد أجري اليوم نفس المحادثة بالضبط، صحيح أنني لن أكذب، ولكن لعلني لن أبذل جهدًا كهذا كي أفتح قناة تواصل جديدة كهذه. ومع ذلك، ما زلت أرى أن الاستعداد للصدق – خاصة حول أمور قد يُتوقع أن المرء يخفيها – كثيرًا ما يقود إلى لقاءات أكثر إيجابية مع سائر البشر.

بالطبع لو كنت أحمل مخدرات ممنوعة، لكان موقفي حينها مختلفًا جدًّا، فمن أسوأ الأمور حول خرق القانون أنه يجعلك خصمًا لعدد غير محدود من الناس، وذلك من أبرز الآثار العديدة الهدامة للقوانين الجائرة: فهي تغري أناسًا مسلمين وصرحاء (في العادة) بالكذب، كي يتجنبوا العقاب على أمر لا شائبة فيه أخلاقيًا.

المحاسبة العقلية

إحدى أكبر المشكلات التي تواجه الكاذب هي أن عليه تذكّر أكاذيبه، وبعض الناس أفضل من غيرهم في ذلك. إذ يمكن للسيكوباتيين أن يتحملوا عبء المحاسبة العقلية دون أي قلق يذكر. وليس ذلك بعجيب، فهم سيكوباتيون، لا يهتمون بالآخرين ومستعدون جدًا لقطع العلاقات متى دعت الحاجة. وبعض الناس عمالقة في عبادة الذات، لكنّ الكذب يلقي بتكلفة نفسانية دون شك على سائر الناس.

الأكاذيب تلد أكاذيب، وخلافًا للحقيقة، التي لا تتطلب منا مزيدًا من الجهد، فإنّ الأكاذيب تحتاج إلى حمايتها باستمرار من الاصطدام بالواقع. فحين تقول الحقيقة، فلا يوجد شيء ينبغي عليه أن تذكره، فالعالم نفسه يصبح ذاكرتك، ولو طرأت أي أسئلة، فيمكنك دومًا أن تحيل الآخرين إليه. بل يمكنك حتى أن تعيد تقييم وقائع معينة وتغير آراءك بصدق، وأن تناقش حيرتك، وصراعاتك، وشكوكك بصدق مع كل شخص قادم. فالالتزام بالحقيقة يطهرك طبيعيًا من الخطأ.

أما الكاذب فعليه أن يستذكر ما قاله، ولمن قاله، وأن يُعنى بإدامة أباطيله في المستقبل. وقد يتطلب ذلك قدرًا هائلًا من الجهد، وذلك كله على حساب التواصل الأمين والانتباه التام. فعلى الكاذب أن يقيم كل معلومة جديد، أيًا كان مصدره، كي يعرف إن كان سيضر بالواجهة التي بناها. وتتراكم كل هذه المتاعب، بغض النظر عن اكتشاف أي أحد أنه كان يكذب.

لو قلت ما يكفي من الأكاذيب، فإن الجهد اللازم بذله للاستمرار في خداع الآخرين لا يمكن أن يستمرّ للأبد، ومع أنك قد لا توصف على نحو صريح بأنك مخادع، فإن معظم الناس سيستنتجون، لأسباب قد لا يستطيعون تحديدها، أنك لست جديرًا بثقتهم. وسوف تبدو أشبه بشخص يحوم دومًا حول الحقيقة، لأنك تفعل ذلك يقينًا. يعرف معظمنا أناسًا كهؤلاء، ولا أحد يصارحهم بالحقيقة أبدًا، لكنّ كل من حولهم يبدوون بمعاملتهم كما لو كانوا كائنات خيالية، وكثيرًا ما يتمّ نبذ أناس كهؤلاء بهدوء، ولأسباب ربما لن يفهموها أبدًا.

في الواقع، كثيرًا ما يتنامى الشك لدى طرفي الكذبة، فالأبحاث تشير إلى أن الكاذبين يثقون بمن يكذبون عليهم أقل مما قد يفعلون في أي حالة أخرى، وكلما ازداد الضرر الناتج عن أكاذيبهم، قلت ثقتهم، أو حتى مودتهم، تجاه ضحاياهم. الأمر يبدو وكأن الكاذبين، حمايةً منهم للـ "الأنا" الخاصة بهم وتفسيرًا لسلوكهم على أنه مُبرّر، يميلون إلى تحقير من يقصّون عليهم الأكاذيب.¹³

النزاهة

ما الذي يعنيه أن تكون نزيهًا؟ تتكون النزاهة من عدة أمور، لكنها عادة ما تتطلب منا تجنب السلوك الذي يقود بسهولة إلى الشعور بالخزي أو الندم. والرقعة الأخلاقية هنا تشمل ما هو أبعد من مسألة النزاهة، ولكن لكي نكون نزيهين بحق، فإنّ علينا ألا نشعر بالحاجة إلى الكذب بشأن حياتنا الشخصية.

الكذب يعني نصب حاجز بين الحقيقة التي نعيشها والإدراك الذي كوّنه الآخرون عنا. والإغراء بفعل ذلك كثيرًا ما ينشأ من تصور أن الآخرين سينتقدون سلوكنا، وكثيرًا ما يكون لديهم سبب وجيه لذلك.

خذ أي صحيفة وألقي نظرة على المشكلات التي يخلقها الناس لأنفسهم - ثم يحاولون إخفاءها - بالكذب. إنَّ من المذهل كيف أنَّ الناس، بكل بساطة، يدمرون زيجاتهم، وأعمالهم، وسمعتهم عبر قول شيء وفعل شيء آخر. لانس آرمسترونغ، وتايغر وودز، وجون إدواردز، وإليوت سبتزر، وأنتوني وينر، هؤلاء كلهم رجال تثير أسماؤهم أشهر صور للتدمير الشخصي، لكنَّ الخداع هو ما ربَّب المشهد لإهانتهم، إذ يمكن للمرء أن يطلق زوجته دون الحاجة إلى إصدار اعتذار علني، بل يمكن للمرء أن يتعاطى العقاقير الممنوعة، أو يحيا حياة فضائحية، أو حياة فوضى جنسية، دون أن يدفع الأثمان التي دفعها هؤلاء. فحياة العديد من الناس تكاد تستعصي على الفضيحة، أما نقطة الضعف فتأتي من التظاهر بأمر لا يمثلك.

الأكاذيب الكبرى

يدرك معظمنا اليوم بكل ألم أن ثقتنا في الحكومة، والشركات الكبرى، وسائر المؤسسات العامة قد قوضتها الأكاذيب.

فقد أشعل الكذب حروبًا وأطال من أمدها: فقد كان حادث خليج تونكين في فيتنام، وكذلك التقارير الزائفة عن أسلحة الدمار الشامل في العراق، مثالين قاد فيهما الكذب (على صعيد ما) إلى صراع مسلح ربما ما كان ليحدث دونه. وحين تجلَّت الحقيقة في النهاية، فإن أعدادًا هائلة من الناس ازدادوا شكًا في السياسة الخارجية الأميركية، بل وصل العديد منهم إلى حد التشكيك في شرعية أي تدخل عسكري، مهما كان الدافع المعلن له.

كما انتُقدت شركات الأدوية على نطاق واسع بسبب تضليل الجمهور بشأن سلامة أدويتها وكفائتها، ولهذا التضليل عدة درجات، لكن بعضًا منه بالتأكيد كان نتيجة لمحاولات مقصودة للتلاعب بالبيانات. فكثيرًا ما تقارن الأدوية الجديدة بالعلاج الوهمي بدلًا من العلاجات المتعارف عليها - وحين تقارن بدواء موجود، فكثيرًا ما يُقدَّم هذا الدواء بجرعة خاطئة - والأفدح من ذلك أن شركات الأدوية قد اعتادت التنكّر للنتائج السلبية. يذكر عالم الأوبئة بن غولديكر أنه فيما يخص أدوية معينة، فإن أكثر من 50% من بيانات التجارب قد حُجبت، وبالتالي فإن التجارب الممولة من جهات منتمية لهذه الصناعة أكثر ميلًا بأربعة أضعاف إلى أن تظهر منافع أي دواء جديد.¹⁴

لقد قادت الأكاذيب الكبرى الكثير من الناس للشك تلقائيًا في ذوي المناصب المهمة، ولذا فمن المستحيل الآن أن نقول أي شيء ذي بال عن تغير المناخ، أو تلوث البيئة، أو التغذية البشرية، أو السياسة الاقتصادية، أو النزاعات الخارجية، أو الطب، أو عشرات الموضوعات الأخرى دون أن يعبر قسطٌ معتبر من جمهورنا عن شكوك خامدة حتى في أرقى مصادر معلوماتنا سمعة. ويبدو أن حوارنا العام سيظل محاطًا للأبد بنظريات المؤامرة.¹⁵

خذ مثلًا الخوف الشائع من لقاحات الأطفال. فقد نشر الطبيب أندرو ويكفيلد عام 1998 دراسة في مجلة The Lancet تربط بين لقاح الحصبة ولقاح النكاف ولقاح الحصبة الألمانية (MMR) وبين التوحّد. وقد حكم على الدراسة بعدئذ بأنها «تزوير مفصل»، كما ألغيت رخصة ويكفيلد الطبية.¹⁶ ربما كانت عواقب خديعة ويكفيلد سيئة بما يكفي، لكن تأثير الديمومة لأكاذيب كبرى أخرى جعل علاج الضرر الذي أحدثته مستحيلًا. فنظرًا لأن الشركات والحكومات تكذب أحيانًا، إما تجنبًا منهم لطائلة القانون أو تهربًا من رعب العامة، فقد بات من الصعب للغاية أن نرَوِّج للحقيقة حول لقاح

(الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية). انخفضت معدلات التلقيح - خاصة في المجتمعات المرفهة حسنة التعليم - وأصيب بعض الأطفال بالأمراض بل وماتوا جزاء ذلك.

لعل إحدى الحقائق المحزنة حول النفسانية البشرية فاعلة هنا على نحو يصعب من تفنيد الأكاذيب ما أن تظهر إلى العالم: إذ يبدو أننا نميل لتذكر العبارات على أنها حقائق حتى بعد تكذيبها. فعلى سبيل المثال، لو انتشرت شائعة تقول بأن سياسياً شهيراً أغمي عليه ذات مرة خلال خطاب انتخابي، وانكشف لاحقاً أن هذه القصة زائفة، فإن نسبة معتبرة من السكان ستذكرها كحقيقة، حتى لو تعرضوا لها أول مرة في سياق تفنيدها بذاته، ويعرف ذلك في علم النفس «بتأثير الحقيقة الوهمية»، فالألفة تولد المصادقية.

للمرء أن يتخيل ظروفًا، ربما في أزمان الحرب، قد يكون فيها كذب المرء على أعدائه ضروريًا، خاصة لو كان هناك احتمال لتقليل الخسائر في أرواح الأبرياء عن طريق نشر الأكاذيب. ومن المؤكد أن الحدّ الفاصل بين هذه الظروف والعديد من الحالات التي نوهنا بها أعلاه قد يكون صعب التحديد، خاصة لو تطلب كذب المرء على أعدائه أن يكذب على أصدقائه أيضًا. وفي أحوال كهذه، فقد لا نتعرف على الكذبة الخيرة إلا بأثر رجعي. لكنّ الحرب والتجسس ظروف إما تتقطع فيها العلاقات البشرية أو لم تؤسس من البداية؛ ولذا فإن القواعد الأساسية للتعاون لم تعد تنطبق على هذه الحالات. وما أن يبدأ أحدهم بإلقاء القنابل، أو تدمير البنية التحتية للبلاد بهجمات اختراق، فإنّ الكذب سيصبح مجرد سلاح آخر ضمن العتاد.

إن الحاجة إلى أسرار الدولة واضحة، ولكنّ حاجة الحكومات إلى الكذب على شعوبها تبدو لي معدومة تمامًا. فالخداع الحكومي المبرر أشبه بالسراب الأخلاقي: ما أن تظن أنك وصلت إليه، حتى تشير الحقائق عادة إلى شيء آخر. والضرر اللاحق حين تنكشف أكاذيب من هذا النوع يصعب إصلاحه جدًا.

أظن أن قول الأكاذيب الضرورية سيكون أمرًا نادرًا إلا لدى الجواسيس، لو سلّمنا بأن التجسس مسوّغ أخلاقيا في عالم اليوم، حيث يشاع بأن على الجواسيس أن يكذبوا حتى على أسرهم وأصدقاءهم. كلي ثقة بأنني لن أستطيع العيش شخصيًا على هذا النحو، مهما كانت القضية عادلة. فدور الجاسوس يبدو لي أشبه بتضحية مطلقة بالأخلاق الشخصية من أجل خير أعظم، حقيقياً كان أو متخيلاً، إنه نوع من حرق الذات أخلاقياً.

لكني أظن أنه لا يسعنا أن نستمدّ نصائح يومية من حياة الجواسيس إلا بقدر ما نستمد مثلًا من مغامرات رواد الفضاء. فمثلما لا يحتاج معظمنا إلى القلق على كثافة عظامنا في غياب الجاذبية، فإننا لا نحتاج إلى التفكير فيما إذا كانت أي عبارة نقولها ستهدد الأمن القومي، فأخلاق الحرب والتجسس هي أخلاق الطوارئ، ولذا فإن مداها محدود بالضرورة.

الخلاصة

كما كان الحال مع أنا كارنينا، ومدام بوفاري، وعطيل، فإنه كذلك في الحياة، فمعظم أشكال السيئات السرية والشور العننية تثيرها وتوقدها الأكاذيب. فأفعال كالزنا وسائر الخيانات الشخصية، والاحتيال المالي، والفساد الحكومي - وحتى القتل والإبادة - عادة ما تتطلب نقصاً أخلاقياً إضافياً: هو الاستعداد للكذب.

كأن معنى الكذب، بحكم التعريف، هو رفض التعاون مع الآخرين. فهو يختزل انعدام الثقة والمصدقية في فعل واحد، ويمثل فشلًا في التفهّم وكذلك عدم استعداد لأن تُفهم، فالكذب هروب من العلاقة.

إننا بالكذب نحرم الآخرين من رؤيتنا للعالم، وخداعنا لا يؤثر فقط على الخيارات التي يتخذونها فحسب، فكثيرًا ما يحدد الخيارات التي يمكن أن يتخذونها أيضًا، وبطرق لا يمكننا دومًا توقعها، فكل كذبة هي اعتداء على استقلالية من نكذب عليهم.

إننا بالكذب على شخص واحد، ننشر الأكاذيب ضمنيًا بين كثيرين غيره، بل وفي مجتمعات بأسرها. كما نجبر أنفسنا على خيارات لاحقة –سواء للحفاظ على الخديعة أم لا– يمكن أن تزيد حياتنا تعقيدًا. وهكذا، فإن كل كذبة ستهيمن على مستقبلنا. لا يمكننا أن نحدد متى أو كيف ستصطدم مع الواقع، مما يضطرنا إلى المزيد من الجهد لإدامتها، أما الحقيقة فلا تحتاج إلى مثل هذه العناية، بل يمكن ترديدها ببساطة.

إن أكاذيب الأقوياء تدفعنا نحو الشك في الحكومات والمؤسسات، وأكاذيب الضعفاء تجعلنا جامدين تجاه معاناة الآخرين، وأكاذيب نظريات المؤامرة تثير الشكوك في مصداقية كاشفي الأسرار، حتى حين يقولون الحقيقة.¹⁷ فالأكاذيب هي المكافئ الاجتماعي للنفايات السامة: إذ يمكن لانتشارها أن يؤدي الجميع.

كيف يمكن لعلاقاتك أن تتغير لو اعتزمت ألا تكذب مجددًا؟ أي حقائق حول شخصك قد تطفو على السطح فجأة؟ أي نوع من الأشخاص ستحوّل إليه؟ وكيف سيغير ذلك الناس من حولك؟ الأمر يستحق المعرفة.

أفرادًا في حياته لا يمكنه أن يقول ذلك عنهم، فلماذا أرغب في أن أكون منهم؟